﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠﴾ [الحديد: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أمَـرَ بالإيمـانِ؛ فوبّخ على الكفرِ
وأمـر بالإنفاق؛ فوبّخ على البخلِ

بعد أن أمرهم اللّهُ ﷻ بالإيمان والإنفاق في قوله الحكيم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾؛ وبّخهم على تقصيرهم في الإيمان، فقال ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ﴾، فما أبقى لهم عذرًا، ولم يبقَ إلّا توبيخهم على ترك الإنفاق، مبيّنًا أنْ لا حجّة لهم في الإمساك، ولا عذرَ لهم في البخل[1]؛ إذِ المال للّه وحده، فوبّخهم توبيخ المستغني عن عَطائِهم، المتفضّل عليهم بما بأيديهم، وحثّهم حثَّ مَن يَعْلَمُ أنّ النّفقة لا تنقصُ رزقًا، ولا تقطع ميراثًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِيرَٰثُ﴾: اسم على وزن (مِفْعال)، أو هو مصدر ميميّ، وجذره اللّغويّ: (ورث)، وهو لِما يورث؛ أيْ: يبقي شيئًا أو ميراثًا، والوارثُ إذا أُخْبِرَ به عن اللّه ﷻ؛ فمعناه: الدّائم الباقي بعد فناء خلقه، وهو الذي يرث الأرضَ ومن عليها. وأصلُ المادَّة (ورث) يدلُّ في اللُّغةِ على الشّيء الذي يكون لقوم، ثمَّ ينتقل لآخرين بنسَبٍ أو سبب، وقريبٌ منه: تعبير الرّاغب وهو "انتقالُ قُنْيَةٍ إليكَ عن غيرك من غير عَقدٍ، ولا ما يجري مجرى العَقْد، وسُمّي بذلك المُنتقِلُ عن

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 445.

الميّت، فيُقال للقُنية الموروثة: ميراثٌ وإرثٌ"[1]. ومعناه المحوريّ: أن يحوز الإنسان ملكَ غيره بعد موتِ الأوّل وفنائه، والغالب في القرآن بهذا المعنى؛ بخلافة أو تقلّب، أو بمعنى أن تكون العاقبة له[2]. ومعنى ﴿مِيرَاثُ﴾ في الآية محلّ التّفسير: إشارةٌ إلى أنّ الله تعالى يميت "أهل السَّموات وأهلَ الأرض ويبقى وحده، فذلك ميراثه ﷻ: أنّه يبقى، ويفنى كلُّ شيء"[3].

2) ﴿ٱلْفَتْحِ﴾: مصدر للفعل فتحَ يفتحُ، والجذر اللّغويّ منه: (فتح)، وهو دالٌّ على نقيضِ الغلق، وإليه يرجِعُ قولهم: فتح دار الحرب، والفتح على القارئ، والنّصرة، والحكم، وغيرها. ومنه أيضًا: فتح ما استغلق من العلوم[4]. ومعنى ﴿ٱلْفَتْحِ﴾ في الآية: فتح مكّة، أو صلح الحديبية[5]، فقد سمّاه الله فتحًا بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: 1] حين صدّه المشركون عن المسجد الحرام، فعَقَدَ معهُم الصّلح، واعتبر ذلك الصّلح فتحًا لِما فيه مِنَ المَصْلَحَة[6].

3) ﴿وَقَٰتَلَ﴾: فعل ماض، على زنة فاعَلَ؛ وهو دالٌّ على المشاركة، والجذر اللُّغويُّ منه: (قتل)، و"القتلُ: معروف، يقال قَتَله؛ إذا أماتَهُ بضربٍ أو حجر أو سمّ أو علّة، والمنيّة: قاتلة"، وأصل المادَّةِ دالٌّ على إذْلالٍ وإماتةٍ، يُقالُ: قَتَلَهُ قَتْلًا، والقِتْلَةُ: الحالُ يُقْتَلُ عَلَيْها، وقد قيل في الدّوابِّ المقتل؛ وهو الذَّليل الممرّن على العمل[7]، والقتل بمعناه الشّائع المعهود: إصابة الشّيء؛ وهو القضاء على الحياة بهدم بنيانِ البَدَنِ[8]. ومعنى ﴿وَقَٰتَلَ﴾ في الآية هو المعنى المعهود لِمَنْ يجاهِدُ لإعلاء كلمة الحقِّ والدّينِ[9].

4) ﴿دَرَجَةً﴾: لفظُ الدّرجة متعلّق بالرّفعة والمنزلة، وبمعنى المراقي التي يترقّى فيها الإنسان. ومن المجاز: الصّعود في المراتب[10]، ومنه: درج البناء؛ وهي المراتب التي يكون

(1) الراغب، المفردات: (ورث).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ورث).
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/ 249.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فتح).
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 471.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 665.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قتل).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قتل).
(9) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 143.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس: (درج).

بعضُها فوقَ بعض، وهو المعروف بالسّلّم المجسّم من حجر أو خشب، وهي التي يُتوصّل بها إلى سطح البيت. والدّرجات تأتي بمعنى المراتب ماديًّا ومعنويًّا[1]، ومعنى ﴿دَرَجَةً﴾ في الآية: الشّرف في الدّنيا، أو التّفاضل في المنزلة في الآخرة على سبيل التّوسّع والمجاز[2].

5) ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الحسنى اسمُ تفضيلٍ، مُذَكَّره: الأحسن؛ من الفعل حَسُن يحسُنُ، والجذر اللّغويّ لهذه اللّفظة: (حسن)، والأمر الحَسَنُ ضدّ السَّيِّئ المقابل له، والحُسْنُ: الإجادة في العمل والمعرفة والإتقان، والأصل في الحاء والسّين والنّون دلالتُه على نقيض القُبْح؛ وهو "عبارة عن كلّ مُبْهِج مرغوب فيه...، والحسنةُ يُعبّر بها عن كلّ ما يسرّ؛ مِن نعمة تنالُ الإنسانَ في نفسِه وبَدَنِه وأحواله، والسّيئةُ: تضادُّها"[3]. ومعنى ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في الآية: هي الجنّة، وهو الغالبُ، ويجوز أن يُراد به ما هو أعمُّ مِن ذلك، كالنّصر أو الغنيمَةِ في الدّنيا[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـوة للإنفاق قبل الـفـوات، وبـيـانُ فـضـلِ السّابقين ذوي الثّبات

يخاطبهم الله سبحانه: أيّ شيءٍ يَحْبِسُكم عن الإنفاق في سبيل الله، وليس لكم من الأموال قليلٌ ولا كثير، بل الملكُ لله وحده، يرثُ السّماوات والأرض ومن فيهن؟! فما في أيديكم عارية مردودة، لا تلبث أن تنتقل عنكم، أو تُنتقلون عنها، ثمّ يعود الأمر كلّه إلى مالكه الحقّ؛ فبادِروا إلى الغنيمة قبل الفوت، واغتنموا النّفقة قبل الموت. ثمّ ذكَرَ سبحانه تفاوتَ منازل العاملين، بحكمته البالغة وعدله المطلق، فقال جلّ شأنه: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾، فأولئك الذين بادروا إلى الجهاد والإنفاق أعظمُ درجة عند الله من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح والنّصر.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (درج).
(2) الجرجاني، درج الدرر: 1/ 754.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (حسن).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 172.

ولَمّا كان تفضيل السّابقين قد يسبق إلى وهَمِ السّامع أنّ في المفضول قدحًا أو نقصًا؛ دفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، فشهد للجميع بالإيمان الحقّ، وبشّرهم بجنّات النّعيم، وهو العليم الخبير بأعمالهم، فيجازي كلًّا بما علمه من نيّته وعمله، إنّه عليم حكيم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾:

الإيمان أساسٌ، والإنفاقُ صورةٌ مِنْ صوَرِهِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ يَحْتَمِل أن تكون للعطف؛ لأنّه لَمّا أمرهم بالإيمان والإنفاق، وكان الإيمانُ - مع كونه الأصلَ الذي لا يُقبل عملٌ إلّا به - خاليًا من خسران أو نقصان؛ عطف عليه ما يُعين على تحصيله، وهو التّرغيب في التّوصل إليه بالإنفاق[2]، فهو ليس محضَ عمَلٍ مستقلّ، بل طريقٌ موصِلٌ إلى الإيمان الكامل، ومظهرٌ من مَظاهرِه.

ويَحْتَمِلُ أن تكون الواوُ استئنافيّة[3]؛ استهلّت بها جملة جديدةٌ مستقلَّة؛ لبيان أهمّيَّتها، وتوكيدِ مضمونها، فيلفت السّمع والبصيرة إلى ما حَواهُ مِن عتابٍ كريمٍ، وتعجُّبٍ عظيمٍ.

غرض التّعبير بالاستفهام بـ(ما) في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾:

توبيخ قرآنيّ يستحثّ البذلَ ويُجلّي حقيقة الفناء

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ خارج مخرجَ التّوبيخ والتّقريع، كأنّ الآية تعاتب المخاطبين عتابًا مرًّا؛ فأيّ شيء يمنَعُكُم مِنَ البذل في سبيل الله تعالى ومن الإنفاق فيما يُقرّبكم إلى ربّكم، وأنتم موقنون بالمآل، راحلون عن الدّنيا، تاركون

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 838.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 266 - 267.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 464.

أموالكم، وهي صائرَةٌ لا محالة إلى وارثها الحقِّ ﷻ[1]، فكيف يُمْسِكُ العاقل يدَهُ عمّا ينفعُه في آخرته، وهو يرى المال يفارقه.

معنى اللّام ودلالتُها في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

تـمـكُّـنٌ ودليـل على الاستطاعة في فعلِ الإنفاقِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ تدلُّ على الاختصاص والتمكّن، فالمخاطبون أهلٌ للإنفاق مُقْتَدِرون عليه؛ إذ لا يصحُّ توجيهُ هذا النّمط من الإنكار إلّا لمَنْ كان متمكّنًا من الفعل، وهذا يُشير بوضوحٍ إلى أنّ الاستطاعةَ سابقةٌ على الفعل، وأنّ القُدْرَةَ صالحَةٌ للفِعْلِ وتركه على حدّ سواء، ممّا يدلّ على أنّ الإنفاق واقعٌ من العبد عن إرادةٍ واختيارٍ.

دلالة توجيه الخطاب في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾:

إنفاق وجهاد في سبيل الله خيرٌ مِن مالٍ يَفْنى بلا حياة

في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ استنهاضٌ للهِمَم؛ إذ يُستفهم عن أمرٍ ظاهر البطلان، وهو الامتناع عن الإنفاق في سبيل الله تعالى؛ فأيُّ عذر أو غرض لكم في هذا التّواني، وقد أُمرتم بالجهاد، والله تعالى لا محالة مُمضٍ أمرَهُ بكم، ووارثُ أموالَكُم مِن بعدكم؟[2]. وإذا كان المرادُ بضَمير الخطابِ المنافقين؛ فهو خطابٌ توبيخيّ لهم على تركِ الإنفاق. أو إلى أولئك الذين وُبّخوا أوّلًا على ترك الإيمان؛ فيكون قد وبَّخهم سبحانه على ذلك بعد توبيخهم على عدم الإيمان، مُنكِرًا أن يكون لهم في هذا أيُّ عذر يعتدّ به[3]. فالمنافقون من "مظاهر نِفاقهم أنّهم شحّوا بالإنفاق في سبيل الله"[4]، فقد كُشِفَ تناقُضُهم، وفُضِحَ بُخلهم الذي يُعدّ دليلًا على نفاقهم، فقد حثّ الله تعالى على "الإنفاق في أسلوب إنكاريّ تعجبيّ يُظهر قبحَ تركِ الإنفاق، ويُشعر بأنّ التّخلّف عنه أمرٌ لا يُعقل، مع نسبة هذا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 373.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 474.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 372.

التّرك إلى المخاطب مباشرة، ممّا يزيد من شدّة التّوبيخ، وهو من أبلغ الأساليب في البعث على الإنفاق في سبيل الله تعالى[1].

بلاغة حذف حرف الجر (في) من قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾:

في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ حَذْفٌ، وتقدير الكلام: (وَما لَكُمْ في أن لا تنفقوا)[2]، والمعنى: أيُّ شيءٍ عرَضَ لكم، وحصل في تَرْكِكُم للإنفاق؟ وما الذي دعاكُم إلى هذا الامتناع؟ والإشارةُ إلى أنّ ما وقع مِنْهُم أمْرٌ مُنْكَرٌ لا مسوّغ له[3]. وفي حَذْفِ حَرْفِ الوعاءِ تناسُبٌ مع المطويِّ في قُلوبِهِم من أسباب عدَمِ الإنفاق، فأخفى مِنَ النَّصِّ ما أخْفَوْهُ في الواقع، وهو مِن بديع التَّناسب بين الحال والمقالِ.

عـدم الإنـفـاق منكَرٌ لا يَسوغُ بحالٍ

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ دون المصدر الصّريح:

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ مؤلّف من (أن) المصدريَّة المدغمة في (لا) النّافية، وأصلها (أنْ لا تُنْفِقوا)، والمصدر المؤوّل في موضع جرّ بـ (في) أو موضعِ نَصْبٍ[4]، والتّعبيرُ بـ (أن) المصدريَّةِ هذه لإفادَةِ التّعليل والتّوكيد[5]، فكأنَّ المنهيَّ عنه ليس مجرّدَ تركِ الإنفاق، بل اقتران التّركيب بالعزم على عدم البذل، وهي هنا مع دلالتها على التّعليل تُضْفي توكيدًا بليغًا، فكأنَّ النّهيَ مقرون ببيان العلَّة، والتّحذير من عاقبة الشُّحّ.

الإيـمـان حـال، والـنّـفـقـة مـآل: بلاغة الزّمن في سياق التّكليف

وفي العدول عن المصدر الصّريح إلى المصدر المؤوّل بـ ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ نكتَةٌ بيانيَّةٌ، فـ (أنْ) تُخلّص الفعلَ للاستقبال بلا خلاف[6]، أمّا (لا) فمُخْتَلَفٌ في دلالتها هل تُخلّص للاستقبال أم لا؟ وعلى هذا جاء التّعبير عن الإيمان بصيغة الحال؛ لأنّه من أفعال القلوب،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 474، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 204.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 474.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 373.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 102.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 333.
(6) ابن الحاجب، الكافية في النحو، ص: 55.

وهي ممّا يُمْكِنُ حصوله من المكلّف في الحال. أمّا النّفقة في سبيل اللّه؛ فهي ممّا لا يُقْدَرُ عليه حالَ الخطاب، بل تكون بعده في زمنٍ لاحق، فناسبَها التّعبير الدّالّ على الاستقبالِ بعد تراخٍ[1]. كما أنَّ في استعمال المصدر المؤوّل ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ عوضًا من المصدر الصّريح سرًّا بلاغيًّا دقيقًا؛ إذ في إقحام (أن) المصدريّة استغراقُ مَعْنى اللّوم جميعَ الأزمنة ليحيط بتقصير المخاطبِ في الإنفاق عبر الماضي والحاضر والمستقبل جميعًا[2]، فيعمُّ التّوبيخ كلّ آن، ويعلَّق في الذّمّة عتب دائم لا ينحصر في موقف عابر، أو زمان مخصوص.

سرّ تقييد الإنفاق بقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

جاء تقييد الإنفاق بقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليَزيدَ التّوبيخ وقعًا، ويبلغَ العتابُ غايتَه؛ فكأنّ الخطابَ يعجب: أيُّ عذر لكم في أن تبخلوا بما يُقرّبكم إلى اللّه[3]، وقد عُيِّن لكم وجهُ النّفقة بما لا يدَعُ لكم مجالًا للتّردُّد؟! فما الذي يَصْرِفُكم عن الإنفاق وهو من أجلّ الطاعات، وأعظم القربات؟ كما جاء ليرسّخ معنى خاصًّا ومتميّزًا، وهو تأمينُ عتاد الجهاد، فهذا التّركيبُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يغلب إطلاقهُ في القرآن على الجهاد[4]، وما حَمَلَتْهُ من بذلِ النّفوس والأموال في ميادين القتال دفاعًا عن الدّين وكرامته.

توبيخ يُذْكي جمرَ التّقصير، وتحديد يضيّق مساغَ المعاذير

دلالة التّعبير بـ ﴿سَبِيلِ﴾ مضافًا إلى الاسم الأحسَنِ:

أضيفَ لفظُ ﴿سَبِيلِ﴾ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ للدّلالةِ على أنّ المقصود كلّ ما يُرضي الملكَ الأعظم، المتّصف بصفات الكمال؛ لتكون لكم به وُصْلَة، فيخصّكم برأفةٍ هي أعظمُ من الرّحمة، فمَن بَخِلَ بشيء في سبيل اللّه عن وجهٍ مِن وجوه الخير؛

طريقُ الوُصْلَةِ والرّحمة أو الغرامة والنّقمة

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 157.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 267.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 372.

سلّط الله عليه غرامةً في وجهٍ من وجوه الشّرّ[1]. والإضافة تنطوي على تشريف عظيمٍ[2]؛ إذ تكتسب السّبيلُ قُدْسيَّتها وسموَّ شأنها بانتسابها إلى الله تعالى، فيغدو كلّ ما يسلك فيها عملًا مكرَّمًا مقبولًا عند الملك الدّيّان.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ واو الحال[3]، والجملة في موضع الحالِ من فاعل ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ مؤكّدة للتّوبيخ؛ إذ إنَّ ترك الإنفاق بغير عذر قبيح في ذاته، فكيف إذا اقترن بتحقّق ما يوجِبُه؟! فذلك أبلغ في القبح، وأشدّ استحقاقًا للإنكار، وبيانُ أنَّ ما في السّماوات والأرض من الأموال مآله إلى الله تعالى يومَ القيامة؛ فلا يبقى من أربابها أحدٌ؛ هو أبلغ في الحثّ على الإنفاق من مجرّد بيان أنهّا لله في الأصل، وأنّ النّاس مُسْتَخْلَفونَ فيها، فكأنَّ المعنى: كيف تَمْتَنِعون من الإنفاق، والحالُ أنّه لا يبقى لكم منها شيءٌ[4].

لا تبخلوا بما لا يبقى؛ فالمال لله في المُبْتَدأ والمنتهى

سرّ التّعبير بالإظهار في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ دون الإضمارِ:

جاء التّعبير بالإظهار في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ بدلًا من الإضمار؛ تنويهًا بجلال المقام، وتأكيدًا للعظمة، وتحفيزًا أبلغَ على الإنفاق، فإظهارُ الاسم الأحسَنِ (الله) يستدعي جميع صفاتِ الكمال الإلهيّ في نفس السّامع، بخلافِ الإضمار الذي قَد يَغيبُ فيهِ هذا الاستحضار. وقَد خُصّت صفةُ الإرثِ هُنا لِما فيها من الإيحاءِ بِزَوالِ الملك عَن الخَلْقِ، وبقاء الحقِّ للّهِ وحْدَه، ممّا يورِثُ الزُّهد في المال[5]، ويبعثُ على بَذْلِه في سبيلِ مَن لا يزول مُلْكُه ولا يَفْنى وجْهُه. كما

جلال الإظهار تعظيمٌ يورثُ الزّهد ويُحَفِّزُ على البَذْلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 267.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 445.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 95.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 267.

أنَّ في العدول عن الإضمار إلى الإظهار زيادةً في التّقرير، وتربيةً للمهابة[1]؛ إذْ يُستَحضر الاسمُ الأحسَن بكلّ ما يَقْتَضيهِ مِن صِفاتِ العظمة والكمال، فيرسّخ في النّفس يقينَ الملك الإلهيّ المطلق، ويُضْفي على الخطابِ جلالًا يُثير الخشوع، ويربّي في القلبِ وازعَ التَّعْظيم والانقياد.

معنى اللّامِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾:

كلُّ موروثٍ عائدٌ إلى المالك الحقِّ عندَ زوالِ الحياةِ والفلك

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ دالّة على الملك والاختصاص، فالحالُ أنّ كلَّ ما في السّماوات والأرض صائرٌ وراجِعٌ إليه سبحانه بانْقِراضِ العالم، كما يرجِعُ الميراثُ إلى الوارث الحقّ[2]، أفَلَيْسَ هذا المالُ مِن مال اللّه؟ وهل يَمْلِكُ أحدٌ شيئًا استقلالًا مع اللّه سبحانه الذي له ملك السّماوات والأرض؟[3].

الغرَضُ من تَقديم الخبر ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المبتدأ:

ميراثُ الوجود لا يؤولُ إلّا إلى المعبود

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جملة ابتدائيَّةٌ مؤلّفة من الاسم الأحسنِ (اللّه) الواقع مع اللّام خبرًا متقدّمًا، و﴿مِيرَاثُ﴾ مبتدأ مؤخّر، وقد قُدّم الخبر ﴿وَلِلَّهِ﴾ لإفادة الحصر[4]؛ تنصيصًا على أنَّ الميراث كلَّه خالصٌ للّه وحده، لا يشاركه فيه أحد، بيانًا لانفراده بالملك الحقّ بعد فناء الخلق، وزوال الأملاك.

الغرض من إضافة ﴿مِيرَاثُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

مَنْ يَمْلِكُ الظّرف؛ يَمْلِكُ ما فيهِ؛ فلله ميراثُ الكَوْنِ ومَن فيه

استعمل هذا اللّفظ؛ لأنّه لفظٌ جامع يتّسع لدلالةِ الإرث والموروث والموروث عنه، وكلّ ما يتعلّق بانتقال الملك بعد فناء المالك[5]، فاختياره في السّياق لحَشْدِ المعاني في نظم واحدٍ، وهو يُجسّد زوالَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(2) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 201.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 755.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 333.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 267.

الخَلْقِ، وبقاء المالك الحقّ، أقرب ما يمثّل زوال الملك وانتقاله في تصوُّر العرب؛ إذ الميراثُ في عُرْفِهِم رَمْزٌ لِما يخلّفه الإنسانُ بعدَ فنائه، فخاطَبَهُم القرآنُ بما ألفوه[1].

وإضافة ﴿مِيرَٰثُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من إضافة المَصْدَر إلى المفعول، والتّقدير: ميراث أهل السّماوات والأرض، بحذف المضاف، وليس المقصودُ أن يرثَ السّماواتِ والأرضَ أنفسَهُما؛ لأنّ ذلك لا يكون إلّا بعد فناء العالم، فلا يحقّق الغرضَ المقصود من الحثّ على الإنفاق في الحال[2].

واسْتُعْمِلَ هذا التّعبير دون أن يُخَصَّ ميراثُ الأموال؛ دلالة على أنَّ المولى سبحانه يَرِثُ كلَّ شيء فيهما، فلا يبقى لأحدٍ مالٌ أو حقّ؛ إذْ إنّ ذِكْرَ الظّرف ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مجازٌ أو كناية عن ميراثِ ما فيهما، فحيثُ أُخِذَ الظّرف؛ يلزم أخذُ المظروف، ولم يحصل فيه تعميمٌ، فهو كافٍ في التَّوبيخ؛ إذْ لا دليلَ لأخْذِ السّماء والأرض[3].

ولَمّا كان التّوارثُ بين أهل السّماء غيرَ ظاهرٍ ولا معهود؛ جاز في إضافة ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أن يُحمَل على تغليب ما يورَث من أهل الأرض على أهل السَّماء[4]، باعتبار أنَّ التَّوارث متحقّق في الأرضِ مشاهَدٌ في الواقع، فغُلِّب الأظهر والأقرب للفَهْمِ في السّياق.

وفي هذا التّعبير أيضًا إيحاءٌ جليلٌ بأنّ ما فيهم ومَن فيهما صائِرٌ إليهِ راجِعٌ إلى مُلْكِهِ بعدَ فناءِ الخَلْقِ وزوال المالِكين، كما يرجِعُ الميراث إلى مستحقّه بعد انقضاءِ المورّث[5]، وهو تعبير بليغ وشديدٌ في تأكيدِ التّوبيخ؛ إذْ إنّ الإعراضَ عن الإنفاق بغَيْرِ عُذْرٍ ضربٌ من القُبْح والإنكار[6]، فكيف وقَد تحقّقت موجباتُ البَذْل، وتوافّرت دواعيه؟! فإنّ امتناع الإنسان عن الإنفاق مع علمِه بمآل المال إلى غيره؛ يزيد فعله نكارةً، ويغلّظ توبيخَه.

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم﴾:

فُصِلَتْ جملة ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها استئناف بيانيّ ناشِئٌ عمّا قد

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 403.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 373.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 154.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 445.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 239.
(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 205.

يَخْتَلِجُ في صدور بعضِ السّامعين، ممّن فاتهُم الإنفاق والقتال قبلَ الفتح، وأنّهم سَيَتَدارَكونَه[1]؛ فجاءت الآيةُ لتزيل هذا الوَهم، وتبيّنَ أنّ التّفاضل بينَ مَن سبق ومن تأخّر لا يعني حرمانَ المتأخّر مِن الأجر، بل لكلٍّ فضلٌ، ولكنّ السّبق له مقامٌ أعظمُ.

المفاضلةُ بين السّابق والمتأخّر؛ لا يَقْتَضي حرمانَ المتأخّرِ مِنَ الأجرِ

بلاغةُ الإدماجِ في الآيةِ:

في الآية إدماج يتضمّن تفضيلًا بديعًا لبعض المُجاهدين على بعضٍ؛ إذ لم يكُنِ الإنفاق هنا قاصرًا على بذل المالِ فحسبُ، بل شاملًا ما يُنْفِقُه المجاهد على نفسِه في العُدّة والزّاد، وما يبذله على غيره ممّن عاقَهُ العجزُ عن الاستعداد، فدلّ ذلك على أنّ الإنفاق وسيلةٌ تمهيديَّة للجهاد، وأنّ مَن جَمَع بينَهُما قبل الفتح أرفعُ منزلةً، ومع ذلك لم يغفل النّصُّ مَن جاهدَ دون أن يُنفق؛ ليبقى له نصيبٌ مِنَ الفَضْلِ[2].

فضيلةُ السّابقِ إلى الطّاعاتِ

الغرَضُ من التّعبير بأسلوبِ النّفي في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِى﴾:

المراد بنفي التّسوية نفيُها في الفضل والثّواب؛ إذ إنّ نفيَ التّسوية في وصفٍ ما يَقْتَضي ثبوتَ أصلِ ذلك الوصف للطّرفين، مع تفاوتٍ في درجته، فيكون نفيُ التّسوية كنايةً عن تفضيل أحد الجانِبَيْن، وتنقيص الآخر[3] لا على وجه النّفي المطلق، بل على وجه التّفاوت في مراتب الفضلِ، فَقَدْ بيّن تعالى أنَ الإنفاقَ فضيلة، ثمّ ارْتَقى ليبيّن أنَّ المسابقة في الإنفاق هي تمامُ الفَضيلَة[4]، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾؛ فإنَّ نفي التّسوية لا يدلُّ على مجرّد التّفاضل، بل يُؤكّد على وجودِ فارقٍ عظيم في الدّرجات بينَ مَن بادَرَ بالإنفاق والقتال في أوقات الشّدّة وقبل التّمكين، ومَن فعَلَ ذلك بعد

الإنفاقُ فضيلةٌ، والمسابقة فيه: تمامُ الفضيلةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 374.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 374.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 452.

الفتح واليُسْر، "ولما رغّبهم في الإنفاق مطلقًا؛ أرْشَدَهُم إلى فَضْلِ المُبادرَةِ إليه، فخصَّ بالمدح مَن سارَعَ وبادَرَ، وأثْنى على أهله، ولا سيّما مَن نزَلَ فيهم السّياق، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾"[1].

كما أنَّ نفيَ التّسوية يُفْصِحُ عن تفاوُتِ مراتِبِ المُنْفِقين تفاضلًا يُناسِبُ تفاوُتَ أحوالِهم في البذل، بعد أن قرَّر النَّصّ أنّ لهم أجرًا عظيمًا على وجه الإطلاق، فكانَ هذا البيانُ محفّزًا لهم إلى تحرّي المراتب العليا[2]، وتنبيهًا إلى أنّ الأجر معقودٌ بقَدْرِ المبادرة وحالِ المُنْفِق، لا بمجرَّد الفعل في ذاته.

الغرَضُ مِنَ الحَذْفِ في قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾:

حَـذْفُ المعادِلِ بـيـانٌ لِـبُـعْـدِ التَّفاوت؛ حتّى إنَّـه لا يجوزُ أن يُـقـارِنَـهُ ولـو في الذِّكْرِ

ثَمَّ قِتالان؛ أحدُهما أفضلُ من الآخر، ونَفَقتان؛ إحداهُما أفضلُ من الأخرى، وكان القتالُ والنَّفقة من قبلِ فَتْحِ مكَّة أفضلَ مِنَ النَّفقة والقتال بعد ذلك، "وتُرِكَ ذِكْرُ المعادِلِ الذي لا يستوي معهُ؛ اكتفاءً بما بعدَهُ مِن قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ مفسّرًا له ومبيّنًا"[3] وهذا مِن الإيجازِ البليغ، "فقَسيمُ "مَن أنْفَقَ" محذوفٌ؛ لِظُهورِهِ ودلالَةِ ما بعده عليه"[4].

سِرُّ التَّقييد بقوله: ﴿مِنكُم﴾:

سَـبْـقُ الإنـفـاقِ والـجـهـادِ مزيَّةٌ وفَضْلٌ

استعمل لفظة ﴿مِنكُم﴾[5]؛ ليكونَ مجالُ المُقارنَةِ بينَ المُؤْمِنين أنفسِهم، لا بينَهُم وبين غيرهم؛ إذِ المَقْصودُ بيانُ تفاوتِ مراتبِ أهلِ الإيمان، فإنَّ اللّهَ تَعالى لَمّا أراد تفضيلَ السّابقين بالإنفاقِ والجهاد؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 259.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 206.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268.

خصّهم بالذّكر تعريفًا للمُخاطَبين بأنّ الفَضْلَ لَهُم دون غيرهم، فقال: ﴿مِنكُم﴾ تأكيدًا لانتمائِهم إلى جملةِ المؤمنين، وتمييزًا لهم بمزيّة السّبق؛ فلم يقل: (لا يستوي من أنفق) مطلقًا. وفي الآية تعظيمٌ لشأن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه؛ لأنّه كان أسبقَ النّاس إلى بذلِ المال في سبيل اللّهِ[1].

موقع الجارّ والمجرور ﴿مِنكُم﴾ وفائدةُ تقديمِه:

﴿مِنكُم﴾ مُقَدَّم من تأخيرٍ، والأصلُ: لا يَسْتَوي مَن أنفَقَ مِن قبلِ الفَتْحِ وقاتَل مِنْكُم، "لكن قُدّم تعجيلًا بذِكْرِ هذا الوصف، وإظهارًا للاهتمام بكَوْنِ المنفِقين من جماعة المؤمنين"[2] لا من غيرهم.

الإنفاق والاصطفاء في خصوصيَّة المؤمنين في الفَضْلِ

الغرض من التّعبير بـ ﴿مَّنْ﴾ دون (الذي) في قوله: ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾:

لَمّا كانت (مَن) اسمًا موصولًا مشتركًا يفيد العموم[3]، بخلاف (الذي) وهو اسم موصولٌ خاصٌّ يُطْلَقُ في الأصلِ على المذكَّرِ؛ عُبّر بـ ﴿مَّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾؛ لتشمل كلّ من اتّصف بالإنفاق[4]، دون تخصيصٍ لشَخْصٍ أو طائفةٍ، فيفيد التّعبيرُ تعميمَ الفضل لكلّ من بادر بالإنفاق والقتالِ.

كلّ مَن قاتل وأنفقَ؛ لَهُ الخَيْرُ الأوفَقُ

غرضُ ذِكْرِ الإنفاق ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ خِلْوًا مِن مُتَعَلَّقِه:

الغرض من إطلاق الإنفاق في قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ دون تقييده بمتعلِّق؛ كأن يُقال مثلًا: أَنْفَقَ مالَهُ؛ هو الإيحاء بشمول الإنفاق واتّساع دائرته؛ فكأنّ مَن أنفقَ؛ قد بذلَ مالَهُ، وجُهْدَهُ، وقلبَهُ، وجميع قواهُ[5]، فجاء التّعبير مطلقًا ليُصوِّر عظمة العطاء وتمامَ البذل؛ لِذا تكرَّر لفظُ الإنفاق دون غيره؛ مِن مِثْلِ: تَصَدَّق وغيرِهِ.

أنفقَ المالَ بالإحسانِ، وبذَلَ الجهد بلا توانٍ، ووظّف القدرةَ بلا هوان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 376.
(3) العكبري، اللباب: 2/ 53.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268.

سرُّ تقييد الفعلين ﴿أَنفَقَ﴾ و(قاتل) بقوله: ﴿مِن قَبْلِ﴾:

الإنـفـاقُ قبل الـفـتـح بـرهـانُ الإخـــلاصِ وصدقِ الإيمانِ

اسْتُعْمِل حرفُ الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الدّلالة على الابتداء[1]، إذ يُفيد أنّ الإنفاق كان ممتدًّا منذ اللّحظات الأولى؛ إيحاءً بأنّ الفضل معقودٌ لمن ابتدأ الإنفاق في أوائل الدّعوة؛ حيثُ الشّدّةُ، وقلّةُ النَّصير، فكان لسَبْقِهم معنًى أعمَقُ، وأثرٌ أبْقى. ودخلت ﴿مِن﴾ لتأكيد ذلك السّبق[2]، كما هو الغالبُ في دِلالَتِها إذا دخلت على (قبل) و(بعد). وعُبِّرَ بالقبليّة الدّالّة على الزّمن في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾؛ لأنّ المقصود لم يكُن مطلقَ الزّمان، بل الزَّمنُ الذي اقترن فيه الإنفاقُ بالإيمان الخالِصِ في وقت العُسْرِ والابتلاء، فخُصّ بظرفيّة ﴿مِن قَبْلِ﴾[3] الدّالّة على التّحديد والتّمييز؛ للإشارة إلى أنّ الفضل موصولٌ بسَبْقِ المبادرة في أزمنة الشّدّة.

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿ٱلْفَتْحِ﴾:

فـتـح مـكّـة هو الـحـدث الـذي مـهّـد لـظـهـور الدّين كلّه

ظاهر لفظ ﴿ٱلْفَتْحِ﴾ يدلّ على أنّ المراد به فتح مكّة، فاللّام للعَهْدِ العلميِّ؛ لأنّه بات معروفًا معهودًا[4]، أو هوَ صُلْحُ الحُديبية[5]، لكنَّ هذا اللّفظ قد غلَب استعمالُه في هذا الحدث العظيم - فتحِ مكَّةَ - حتّى صار علمًا بالغلبَةِ عليه[6]؛ إذْ بهِ تمّ التّمكينُ وظهورُ الدّين على سائر المِلَلِ، فصار إذا أُطْلِقَ الفَتْحُ أُريدَ به فتح مكّة دون سواهُ، إلّا إذا دلَّت قرائِنُ على غيرِهِ.

بلاغة عطف القتال على الإنفاق:

مِـنَ الإنـفـاقِ إلى القتال؛ يتحقّق تمامُ الإيمان

عُطِف القتالُ على الإنفاق؛ لأنّ الإنفاقَ بذلٌ للمال، والقتالَ بذلٌ

(1) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 1/ 95.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 158.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.
(5) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 755، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 374.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 374.

للرّوح، والمالُ شقيق الرّوح وقرينُها، فمَن بذلَهُما معًا؛ فقد قدَّم أغلى ما يملك، وثبَّت نفسَه كلّها على الإيمان، فاستحقّ بذلك أن يُحرز أعلى غُرَفِ الجِنان. فكان العطفُ مشيرًا إلى أنّ القتال يعدّ من أسمى مراتبِ الإنفاقِ، والإنفاقُ وإن كان دليلًا على الإيمان؛ إلّا أنّ تمام الإذعان لا يكتمل إلّا ببذل النّفس في سبيل الله؛ ولذلك عُطِفَ عليه فِعْلُ القتال[1].

دلالة تقديم الإنفاق على القتال:

تأكيدُ فَضلِ البَذْلِ في وقت العُسْرِ

قُدِّمَ الإنفاقُ على القتال؛ للإيذان بفَضْلِ الإنفاق وعِظم شأنه؛ إذ كان المسلمون آنذاك في حالٍ من الحاجة الشّديدة، فيَجودونَ بأموالهم مع قلّتها، بل أحيانًا لا يَجِدون ما يُنْفِقونه، ومع ذلك يَبْذلونَ ما يَسْتَطيعون[2]، فالإنْفاقُ في مثلِ تلك الظّروف العَصيبَةِ أبلغُ أثرًا وأعظمُ منزلَةً. ويجوز أن يكون تقديمُ الإنفاقِ على القتالِ مِن بابِ تقديمِ العامّ على الخاصّ، فإنّ القتالَ في جَوْهَرِهِ إنفاقٌ للنّفس، والإنفاقُ يَشْمَلُ بَذْلَ المالِ والرّوح معًا؛ فهو غيرُ خالٍ من الإنفاق[3].

سرّ التّعبير بالقتالِ دونَ الجِهاد في قوله: ﴿وَقَٰتَلَ﴾ مع دلالةِ المُفاعلَةِ:

قِتالٌ بِخُصومَةٍ وجهادٌ بإيمانٍ

عُبّر بالقتال دون الجهاد في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتَلَ﴾؛ لما في القِتال مِن دلالةِ المُفاعلَةِ؛ إذْ كانَ فِعْلُه مخاصمةً حقيقيَّة للكفّار، حتّى تلقّى الضّرب والعدوان، وأشرف به على الهلاك، فجاء التّعبير بالقتال لا لكونه جهادًا بمعناه الاصطلاحيِّ الكامل، إذِ الجهاد لم يُفرض إلّا بعد الهجرة[4]، بل لكونه مجابهَةً فعليَّة، وصراعًا واقعيًّا، أظْهَرَ فيه المؤمنُ صِدْقَ الإيمانِ بِبَذْلِ النّفس، فاستحقّ أن يُنسب إليهِ القتالُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 268، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 465.

(2) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 202.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.

سرّ عدم ذكر ﴿قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ مع القتالِ:

لَم يُقيَّدِ القتالُ في الآية الكريمة بكونِه (قبل الفتحِ)، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقاتل قبل الفتح) كما ذُكر ذلك مع الإنفاق، مع أنَّ القتالَ قسيمٌ للإنفاق في السّياق - والسِّرُّ في ذلك: أنَّ القيدَ محذوفٌ لظُهوره؛ إذ دلَّ عليه ما سبَقَ من قوله: ﴿مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾، كما دلَّ عليه ما بعدَهُ في مُقابلَةِ مَن أنْفَقَ وقاتَلَ بعْدَ الفتح. وكذلك الطَّرف المقابل لِمَنْ قاتَلَ محذوفٌ أيضًا؛ للسَّبب نفسه؛ أي: لدلالة السّياق عليه ووضوح المعنى[1].

طَـيُّ مـا دلَّ السّياقُ عليهِ؛ إيجازًا واخْتِصارًا

سرّ عدَمِ ذِكْرِ (من بعد الفتح) كما ذكر ﴿مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾:

حُذِفَ قَسيمُ ﴿مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ إيجازًا؛ اعتمادًا على دلالة فِعْلِ التّسوية المنفيِّ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي﴾؛ إذ لا بدّ من تقديرِهِ ليُفْهَم المعنى كاملًا، والتّقدير: لا يستوي من أنفق من قبل الفتح، ومن أنفق بعده، فدلالةُ السّياق تُغْني عن التّصريح بالقَسيمِ الآخَر[2].

الإنـفـاقُ قبلَ الفتحِ أعْظَمُ في الأجـرِ وأشـدُّ في البَذْلِ

دلالةُ الاستئناف في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ﴾:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ﴾ جملَةٌ مستأنفة[3]، تأتي لتؤكِّد الفرقَ بين الطّرفين وتظهرَهُ، فهيَ بمنزلةِ بُرْهانٍ واضحٍ على عدمِ الاستواء[4]، فقد جاءت في سياق الاستئناف تقويةً لِلحجّة، وتوضيحًا للتّفوّقِ.

الاسـتـئـنـافُ بمنزلة البرهانِ، وعـدَمُ الاستواءِ واضحٌ للعيان

الغرض من التّعبير باسم الإشارةِ للبُعْدِ جَمْعًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

ذُكِرَ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لتمييز الفِئَةِ الفاضِلَةِ على وجهٍ جليٍّ؛ إشعارًا ببُعْدِ منزلَتِهم، وعلوّ مكانَتِهم في الفَضْلِ، ورفعة طَبَقَتِهم في ميزانِ الإيمان والعمل، فالابتعادُ اللّفظيُّ هنا ليس دالًّا

عـلـوُّ شَـأْنِ المُنْفِقينَ المُقاتِلينَ السّابِقينَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 497.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.

على بُعْدٍ زمانيٍّ أو مكانيٍّ، بل هو بُعْدٌ معنويٌّ يُبْرِز شرفَهم وامتيازهم وبما خَصَّهُم به دون غيره من وصفَيْنِ جليلين؛ وهما الإنفاق والقتال قبل الفتح[1]. وعُدِلَ إلى الجمع إشعارًا بعِظَمِ شأنهم، وكثرةِ فضلهم، فهم السّابقون الأوَّلون الذين ثبتوا قبل الفتح وانتشار الإسلام[2]، الَّذين جاء في حقّهم قوله ﷺ: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ»[3]. كما أنَّ وروده دالًّا على الجمع مراعاةٌ لمَعْنى ﴿مَّنْ﴾ التي تفيد الجمع في هذا السّياق، فجاء الجمعُ تعظيمًا وتفخيمًا لهم. أمّا إفراد الضّميرين السّابقين، فكان بالنّظر إلى لفظ ﴿مَّنْ﴾ المفرد[4]، فجمعت الآية بين مراعاة اللَّفظ والمعنى، في بيانٍ لسُموِّ المقام وعلوّ المنزلة لهؤلاء السّابقين.

دلالة التّعبير بأفعل التّفضيل ﴿أَعْظَمُ﴾:

إذا عَظُمَت الدّرجةُ؛ عظُمَتْ منزلةُ صاحبِها

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ أفْعَل التّفضيل في قوله تعالى: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ للدّلالة على التّمييز البالغ، والتّفاضل الرّفيع؛ إذ بِعِظَم الدّرجة يتجلّى عِظَمُ صاحبِها[5]، فصيغةُ التَّفضيل تُظْهِرُ تفاضُلَ مراتب الجنّة، وتشير إلى سموّ منزلة السّابقين؛ إذ درجاتُها متفاوتة، وأعلاها مَن ناله مَن أنفَقَ قبلَ الفتح، في زمن العُسْرِ وقلّة النّصير، فالمشقّةُ عليهم كانت أعظمَ، والبصائرُ في قلوبهم أنفذَ وأقْوى[6]، فالتّفضيلُ هنا لا ينفي شراكةَ الجميع في العظمة، بل يُؤكّد تميّز بعضِهم بعلوّ مقامه. واختيار صيغة ﴿أَعْظَمُ﴾ هنا يَحْمِلُ دلالةً أعمقَ وأشملَ من مجرَّد الأفضليَّة، فهي تعبّر عن العلوّ والسّموّ والرّفعة في المقام، وليس التّفوّق أو التّفضيل بين درجاتٍ متقاربةٍ فحسبُ، فجاء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 103.
(3) رواه البخاري في صحيحه برقم: (3673)، ومسلم في صحيحه برقم: (2541).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 206، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 376.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(6) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.

التّعبير مؤكِّدًا عظمةَ مقامِهم ومكانتهم التي تتجاوز مطلقَ التّفاضل إلى مدارجَ رفيعةٍ من الفضل والكرامة.

بلاغة التّعبير بالاستعارةِ في قوله: ﴿دَرَجَةً﴾، والغرضُ من تَنْكيرها:

استعارة الارتقاءِ للدّلالة على الفَضْل

لفظ ﴿دَرَجَةً﴾ مستعارٌ للدّلالة على الفَضْلِ؛ لأنّ الأصل فيها أنّها ما يُرْتَقى عليه، فارْتِباطها بالعلوّ والارتقاء قائِمٌ في أصل معناها، ومِن هنا شُبّه الفضلُ والشَّرف بالارتقاء الحسّيّ، فعُبّر عنه بالدّرجة على سبيل الاستعارة، وهي مِن ألفاظ الأجناس التي تُستعمل في غير معناها المادّيِّ عند ملاحظةِ صفاتٍ ملازمةٍ لها، كما يُقال (أسد) في وصف الشّجاع، باعتبار الشّجاعة لا الحيوان[1]. واستعمال لفظ ﴿دَرَجَةً﴾ وهو تمييز[2] منكَّر؛ يختَلِفُ في مدلوله عن كلمة (منزلة)؛ لأنّها تدلّ على مرتبةٍ يُمْكِنُ أن تتفاوت في درجاتها، ممّا يفتح المجالَ لتَفاضُلٍ متدرّج بين أصحابها، بخلاف المنزلة؛ فإنّها تدلّ على مقامٍ أو مكانةٍ ثابتةٍ.

دِلالَةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾:

مشاركَةٌ في الفَضْلِ وتمايُزٌ في الدّرجةِ

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾ حرفٌ يشير في هذا السّياقِ إلى تفاضُلٍ ومقارنَةٍ بين طرفَيْن يَشْتَرِكان في أصلِ الفَضْلِ، ويَزيدُ أحَدُهُما على الآخر في الدّرجة والمنزلة، فالمَعْنى: أنّ الطّرفين فاضلان، لكنّ أحدَهُما أعظَمُ فضلًا، فجاءت ﴿مِّنَ﴾ لتدلّ على هذا التّفاضل في الشّرف.

دلالة التّعبير بالموصول وصلَتِهِ ﴿ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾:

إنفاقُهم في سبيلِ الله تعالى علّةٌ لاستِحْقاقِهم وعدَهُ وجنّتَه

جاءَ التّعبير بالموصول وصِلَتِه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ﴾ إشعارًا بأنّ الصّلة هي علّة الخبر؛ فإنّهم لَمّا أنفقوا كان ذلك سببًا في أن يكون مآلُهم أن يَعِدَهُم اللّهُ سبحانه الحُسْنى؛ وهي المثوبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 95.

العظيمةُ بأن يُدْخِلَهُم جنّته، فجُعِلَ الإنفاقُ سببًا لاستحقاق الوعد، ولو قيل: (أعظم درجةً من المنفقين) لَما أفاد ذلك؛ لأنّ اسم الفاعلِ لا يدلّ على العِلّيَّة، بل على مجرّد الاتّصاف.

سر التَّقييد بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾، وبلاغة الطِّباق بين (قبل) و(بعد):

العمَلُ الواحِدُ يَتفاوَتُ ثوابُهُ باخْتِلافِ مُلابساتِهِ

حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ دالٌّ على التّبعيض لا الاستغراق؛ إذ المقصود تفضيل الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتحِ على أولئك الذين أنْفَقوا وقاتلوا بعدَه، لا على كلّ من جاء بعدَهُم في عموم الزّمان[1]، ولو قيل: (الذين أنفقوا بعدُ) دونَ ﴿مِنۢ﴾؛ لأوْهَم العمومَ والاستغراق؛ أيْ: على كلّ مَن أنفَق في كلّ زمان تالٍ، وهو غيرُ مراد. ويتجلّى جمال الطّباق بين ﴿قَبۡلِ﴾ و﴿بَعۡدُ﴾ في الآية في تضادّ الزّمن الذي يُحدّد مَوْقِفَيْن مُرْتَبِطَيْن بفعلٍ واحد، ولكنّهما غيرُ متساويَيْن في القيمَةِ والمكانة، فواقع ﴿قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ يشتَمِلُ ظروفًا أقسى وأكثرَ تحدّيًا تتطلَّب تضحياتٍ أعظمَ، في مقابل (بعد الفتح) التي تَحْمِلُ أجواءَ النّصر والسّكينة، فيُنْشِئُ هذا التّباينُ إيقاعًا لغويًّا محكمًا يُعَزِّز المفهومَ بأنّ الأجر والدّرجة ليستا فَقَطْ بأفعالٍ مُشابِهَةٍ، وإنّما بظروفها ومدى صعوبةِ تحمّلها.

دلالة التّعبير بالجَمْعِ في قوله: ﴿أَنفَقُواْ﴾ و(قاتلوا):

الإنفاقُ والجهاد عطاءٌ بالنّفس والمال والرّأي

الجمع بين ﴿أَنفَقُواْ﴾ و(قاتَلوا) فيه ترابطٌ وثيق، فالمالُ والدّم جنبًا إلى جنب يُدافِعان عن الدّين والحقّ، فـ ﴿أَنفَقُواْ﴾ لتموينِ القِتال وتثبيتِ الجَبْهَة، و(قاتَلوا) بذلُ الأرواح في سبيل الله، فكأنّ الإنفاقَ مطيّةُ القتال، والقتالُ ثمرَةُ الإنفاقِ، فلا غِنى لأحدِهما عن الآخر[2].

سرّ عدم ذِكْرِ الفَتْحِ مع قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ كما ذُكِرَ في صدر الآية:

في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 205.

تعظيمٌ للسّابقين واستغناءٌ عن التّصريح بالمَفْضولينَ لوضوح الحالِ عِنْدَ المُخاطَبين

﴿وَقَٰتَلَۚ﴾؛ جاء ذِكْرُ ﴿مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ تصريحًا، وحُذفت (من بعد الفتح) اعتمادًا على السّياق، في لمسة بلاغيَّة تُبْرِزُ فضل السّابقين، وتُغني عن التّصريح بالمفضول، فالمقامُ مقامُ تفضيلٍ، فذُكِرَ الأعلى تنويهًا بقَدْرِهِ، وأُعْرِضَ عن ذِكْرِ الأدنى؛ إذ يُفهم ضمنًا من المقابلة. وهذه الصّناعة تُشبه قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر: 20][1]؛ حيث ذُكر الفائز، وفُهِم الخاسِرُ، فكان الحذفُ أبلغَ في الإيجاء، وأعمقَ في التَّقدير.

بلاغة التَّعبير بالاحتراس في قوله: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾:

صيانَةُ البَيانِ القرآنيِّ المَعْنى مِن تَوَهُّم غيرِ المُرَاد

قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ احتراسٌ بديعٌ يَدْرَأُ توهّمًا قد يَنْشَأُ مِن اسْتعمال اسم التّفضيل؛ خشيةَ أن يُظنّ أنّه على سبيل نفي المُفاضلَةِ للمُبالغَةِ، كما في قول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: 33]، فلا تفضيلَ حقيقيّ بين مَحْبوبَيْن، بل هو إثباتٌ لمحبوبٍ ونفيٌ لآخر[2]. فالجُمْلَةُ إعلاءٌ مقصودٌ لشَأْنِ الفَريقَيْن، ومدحٌ مُتوازِنٌ يَقْطَعُ وهْمَ التّفاوت المُفْضي إلى الغَبْن؛ إذْ قد يُظنّ أنّ مَن أنفَقَ وقاتَلَ بعد الفتح أدنى مقامًا أو محجوبٌ الأجرَ، وذلك غيرُ كائنٍ البتّة، فإنّ المثوبَةَ - وهيَ الجنّة - موعودَةٌ لكِلَيْهما[3]، وإن تفاوتَت مراتبُ الفَضْلِ، فالحُسْنى وُعِد بها الجميع، عدلًا ورحمة وإنصافًا، "فهذا الوعدُ الجامع لا ينفي التّفاوت في المنازل والدّرجات"[4]، بل يؤكّد أنّ التّفضيل بين السّابق واللّاحق إنّما هو في رفعة المقام لا في أصل الثّواب، مع بقاء التّفاوت في المراتب.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 375 - 376.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 206.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 241، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.

الغرض من تقديم ﴿وَكُلًّا﴾ على فعله ﴿وَعَدَ﴾:

تَـقْـريـرُ شُـمـولِ الـوَعْـدِ وعـمـوم الإثابَةِ

(كلًّا) مفعولٌ مقدّم[1]، وتقديمه يفيد العنايةَ والاهتمام؛ إذ المقصودُ الأهمّ في السّياق هو تقريرُ شمول الوعدِ وعموم المثوبةِ لكِلا الفريقين، لا تقييدها بفريقٍ دون آخر[2].

تنوُّع القراءات بالرَّفع والنَّصب في قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ وثراء المعنى:

التَّكاملُ الدّلاليُّ بين القِراءاتِ القرآنيَّةِ

قرأ الجمهور ﴿وَكُلًّا﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالنّصب، وقرأ ابنُ عامر بالرّفع[3]، فقراءة الجمهور على تقديم المفعول على عاملِه، والأصل: (وعدَ اللّهُ كلًّا الحسنى)، أمّا قراءة ابن عامرٍ بالرّفع؛ فعلى جَعْلِه مبتدأً على تقدير: (وكلٌّ وعدَهُ اللّهُ الحسنى). وكلٌّ من القراءَتينِ يُكمِّل الآخر ويُقوّيه؛ فإنَّ قراءة النّصب أقوى من جهة عدم التّقدير؛ فإنّ قراءة الرّفع يلزَمُها تقديرُ الضّمير (وعدَه)، ومن جهة أخرى: أنّ تقديم المفعول اختيارًا يَرِدُ للاهتمامِ والاختصاص، وهو محقّق الوقوع، فوَعْدُ اللّه سبحانه واقعٌ لا يعوقه عائق[4]. وقراءة الرّفع (وكلٌّ وعدَ) أدلُّ على ثبوت الوَعْدِ؛ لكونِ الجملةِ جملةً اسميَّة، والفرق بينَها وبين الفعليَّةِ ماثلٌ للعيان؛ فإنّ الجملة الفعليّة دالّة على التّجدّد، فالثّواب في دار النّعيم وهي الجنان يتجدّد شخصها في كلّ آن وزمان، أمّا الجملة الاسميّة فيراد بها الدّوام والثّبوت[5]، وكلاهما صفتان محمودتان، وعَدَ اللّه بهما عباده المُنْفِقين.

دلالَةُ التّعبيرِ بالوَعْدِ مادّة وصيغَةً:

وعـدٌ محـقّق، وجزاء موفّق؛ لا شكّ يعتريه، ولا ريبَ ينتابُه

الفعل ﴿وَعَدَ﴾ يَحْمِلُ في طيّاته بشارةً بالجزاءِ الأوفى؛ إذ هو

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 154.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 446.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 384.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 259.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 447.

وعدٌ صادِرٌ مِنَ الخبير الحكيم، العليم بمواقع الفَضْلِ ومواضعِ العدل. وصيغتُهُ الماضَويَّة مُؤْذِنَة بتحقّق الوقوع وثبوتِ الموعود، فهو واقِعٌ لا محالة، وليس هذا بعجيبٍ؛ إذْ كان الوعدُ مِن اللّه تعالى الذي لا يخلف الميعاد.

الغرض من إسنادِ الوَعْدِ إلى الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إسناد الوَعْدِ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ يُضفي على الوعد طابعَ الهيبَةِ والقُدْرَةِ على التّحقيق؛ لمّا كان صادرًا ممّن له الجلالُ والكمالُ والإكرام[1]، فلا خُلْفَ لِوَعْدِه، ولا نَقْصَ في عَطائِه.

وعـدُ الـرّحـمـن جـلالٌ وكـمـالٌ وإكـرامٌ ليس له مثال

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ عن الجنّة:

لفظ ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ تعبير رفيع عن الجنّة بوَصْفِها المثوبةَ الكاملة، فجاءت بصيغة التّفضيل لا على بابها في المفاضلة بين مُتماثِلَيْن، بل على معنى الأصلِ في الفعل، أو على نحو قولهم: الصَّيفُ أحرُّ من الشِّتاءِ[2]؛ أي: في طبيعَتِه لا في حقيقَتِه، فالمقصودُ إبرازُ كمال الجزاء وسموّ العطاء، فالتَّعبير بلفظ الحُسْنى يدلّ على الدّرجة التي بلغت الغايةَ في الحُسْن، فهي أحسَنُ ما يُتَصَوَّر من النّعيم، وإن كانت درجاتُ الجنّة في ذاتها متفاوتةً[3]. "واستعمالُ لفظ ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ يُضفي على أسلوبِ الاحتراسِ معنًى زائدًا يتجاوزُ مجرّد التّأكيد؛ لما فيه من بيان وإيضاح، و﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ في لسان القرآن لقَبٌ إسلاميّ رفيع يدلّ على خيرات الآخرة ونعيمها، كما في قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: 26]"[4].

غـايـةُ الـحُـسْـنِ مع الـتّـفـاوت في الـوصـفِ لا في الأصل

دلالَةُ حَذْفِ الموصوفِ مع ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾:

وُصِفَ جَزاؤُهم بلفظ ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ دون ذكر المَوْصوفِ؛ لأنّه يحتَمِلُ

عطاءُ الحُسْنى في نَضْرٍ وغنيمة، وجنّة عظيمةٍ

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 205.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 447.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 376/

احتمالاتٍ عدَّةً، فيجوزُ أن يُقدَّر الموصوف بـ (المثوبة الحسنى)؛ أي: الجنّة، وهذا هو الغالبُ في السّياق. ويجوز أن يُراد به ما هو أعمّ من ذلك، كالنّصر أو الغنيمة في الدّنيا[1]، أو المنزلة أو العاقبة[2]، أو كلّ خير ينالُهُ المؤمن، ممّا يدّل على سعَةِ الدّلالة وانفتاحِها.

بلاغة التّذييل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾:

وعدٌ للصّالحين بحفظ أعمالِهم، ووعيدٌ للمُسيئينَ بِمُجازاتِهم على أفْعالِهم

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تذييلٌ معترض، فالواو فيه اعتراضيَّة تفيد التّوكيد، فالله محيط علمًا بدقائق الأعمال، ظاهرِها وباطنها؛ يعلَمُ أسبابَ الإنفاقِ وأحوالَهُ، ويُدرك أوقاتَ الجهادِ ونوايا المجاهدين، فيُثيب كلًّا بحسَبِ ما نَوى وعَمِل[3]. وهذا التَّذييل بليغٌ موجَز مشتَمِلٌ على الوعد والوعيد في آنٍ واحد[4]؛ فهو وعد للصّالحين بأنّ أعمالهم محفوظة بعَيْنِ الله تعالى، لا يَضيع منها مثقالُ ذرَّة، ووعيد للكافرين بأنّ خافيَتهم مكشوفة، وأسرارَهم معلومة، لا يَحْجُبها سِتْرٌ ولا يغفل عنها سِجِلّ. وقد جاء التَّذييل مناسبا لختم الآية، وذلك أنَّه لمّا كان زكاء الأعمال ونقاؤها إنّما هو بصحّة النّيّات وصفائها، وكان التّفضيل بين العباد مبنيًّا على ما يعلمه الله من سرائرهم؛ ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ ترغيبًا في إحسان النّية، وترهيبًا من التّقصير والخداع فيها[5].

بلاغة التّعبير بإظهارِ الاسم الأحسن (اللهُ) دون إضماره:

إظهارُ الجلال لتمام الكمال وعظمةِ الإحاطةِ

تتجلّى بلاغة التّعبير بإظهار الاسم الأحسن (اللهُ) دون إضماره؛ تنويهًا بمقام الاسم الأعظَم، وتعظيمًا لشأن المخبِر؛ إذ هو وحده المتفرِّد بالإحاطة الشّاملة بجميع صفات الكمال[6]، العليم بأعمال

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 172.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 756.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 376.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 260.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.

الخلقِ ظاهرِها وباطنها، فلا يليقُ بهذا الموضع إلّا التّصريح باسمه المقدّس؛ ليكون أوقعَ في النّفس، وأبلغَ في التّقرير.

معنى الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِمَا﴾:

بيانُ شدَّة تعلُّق عِلْمِ الله تعالى بأعمالِ العبادِ

أغلبُ معاني الباءِ في لسان العرب راجعَةٌ إلى الإلصاق[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ إذ وردت الباءُ هنا لبيان شدّة تعلّق عِلْم الله بأعمال العباد، وكأنّها ملتصقَةٌ بعِلْمِه، لا تنفكّ عنه لحظَةً، فيَعْلَمُها علمًا محيطًا دقيقًا، لا تَخْفى عليه خافيَةٌ، إيحاءً برقابَةٍ إلهيّة دائمة، توجب الخشيةَ، وتبعَثُ على الإخلاص.

دلالة التّعبير بـ(ما) في قوله: ﴿بِمَا﴾:

خبير بصغير الأفعال وكبيرها، لا تخفى عليه خافية

لمّا كانت (ما) موصولًا دالًّا على العموم[2]؛ اسْتُعْمِلَ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ ليُفصح عن شمول علم الله تعالى ودقّته، فهو خبيرٌ بكُلِّ ما يَصْدُر عَنْهُم من أعمالٍ، صغيرِها وكبيرِها، ظاهرِها وخفيّها، حسَنِها وسَيِّئها، لا يخفى عليهِ منها شيءٌ.

الغرَضُ مِن تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

تقديمٌ يُفْصِحُ عن العناية، وتمييزٌ يكشِفُ عَن الفَضْلِ والهداية

قُدِّم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على وصف الخبير - ﴿خَبِيرٌ﴾ - ؛ "لبيان عناية السّياق بالأعمال؛ إذ المقامُ مقام حديثٍ عن الإيمان والإنفاق والجهاد"[3]، ودلالةً على أولويَّة العلم والقدرة الإلهيّة في إدراك خفايا الأمور وأسرار القلوب[4]. "ولإفادة العناية والاهتمام البالغ بما يعمل العباد؛ إذ جاء التّقديمُ إظهارًا للتّمييز عند مقام التّفضيل"[5]، وتنبيهًا على أنّ علمَهُ تعالى بأعمالهم ليس أمرًا عارضًا، بل هو علمٌ دقيقٌ محيط، يُعْتَنى به في ميزان الجزاء، ويُفْصَلُ فيه بين مراتب العاملينَ.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 98.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 205.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 334.
(4) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 191.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.

دلالة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

عـمَـلٌ منكُم دائم، وعلم به من الله سبحانه قائمٌ

في التّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ إيذان باستمراريَّة الفعل وتجدّد وقوعه؛ للإشارة إلى أنّكم تجدِّدون أعمالكم، وتتقلّبون فيها على مرّ الأوقات[1]، فكلُّ لحظَةٍ تحمل عملًا، وكلّ عمل يخضَعُ لعلم الله ومجازاته. وجاء التّعبير بالمصدر المؤوَّل بدلًا من المصدر الصّريح (خبيرٌ بِعَمَلِكُم)؛ لما فيه من إظهارِ الفعل في حَرَكتِه وامتداده، وتصويرِ الحدث أثناءَ وقوعه، لا كأمْرٍ جامد منجز، ممّا يوحي برقابة إلهيَّة حاضرة ومستمرَّة على الأفعال وقت مباشرَتِها.

دلالة التّعبير بصيغة المبالغة بقوله: ﴿خَبِيرٌ﴾:

عِـلْـمٌ تفصيليّ بـمَـنْ يستحقّ الـثّـوابَ مِـن عباده الصّالحين والـعـقـابَ من النّاكبين

اسْتُعْمِلَ لفظُ ﴿خَبِيرٌ﴾ على زنة (فَعيل)؛ لأنّ الله تعالى لَمّا وعد السّابقين والمحسنين بالثّواب؛ كان من تمام الوعد أن يكون سبحانه عليمًا بالجزئيّات، محيطًا بالمعلوماتِ كافَّةً، عالمًا بمَن يستحقّ الثّواب والعقاب على وجه التّفصيل، ولولا ذلك لَما أمكن الوفاءُ بالوعد على وجه العدلِ والكمال[2]. "وفيه إشارةٌ بليغة إلى أنّ الله تعالى مطّلع على خفايا النّيّات ومكنونِ الطّويات، فليست العبرةُ بظاهر الأعمال، بل بما يَصْحَبُها من إخلاص، أو يشوبها من رياء، فقد يجيءُ العمَلُ في ظاهره صالحًا، وهو في باطنه فاسِدُ النّيّة، فيَحْبَطُ ولا يُقْبَل"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَظَمة والفضل:

الفضل زيادةٌ، والعظمة سيادةٌ، تُجَلّي جلالَ التّضحية وتُعلي لواءَ السّبق والرّيادة

عبّر اللّهُ تعالى في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ بلفظ ﴿أَعۡظَمُ﴾ بدلًا من (أفضل)؛ لأنّ العِظَم يدلُّ في أصله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 269.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 453.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 756.

على الكِبَر والقوّة والرّفعة الفارقة[1]، وهو أنسب في مقام المفاضلة بين الدّرجات العالية، بخلاف الفَضْلِ الذي يدلّ على الزّيادة في الخير[2].

الدرجة والمنزلة:

عُبِّر بالدَّرجةِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ دون المنزلة؛ لأنّ الدّرجة هي الرّفعة في المنزلة[3]؛ ولأنّ الدّرجاتِ تُفصح عن مراتبِ العلوِّ والارتقاء، وتوحي بالتّفاضل الذي يُنالُ بالسَّعي والمجاهدة، بخلاف المنزلة؛ فهي تُطْلَق على المقام الثّابت.

الدّرجات دليلُ تفاضُلِ العملِ، والمنازل مقامُ مَن كُفي السّعي والأمل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(3) الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة: (درج).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"